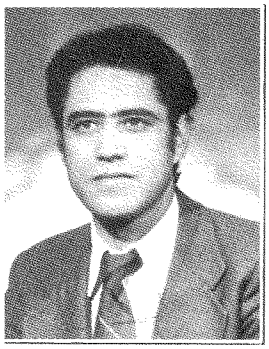

أحمد بوزفور

سَرْنَمة

«النور يبصر النور،
والظلمة لا تبصر إلا الظلمة»

عبد القادر بنعجيبة

(... لم يسكت، أبوه أيضاً لم يسكت لهم حين حاولوا إغراءه بعد الاستقلال. إنها عائلة رجال، رجال أحرار: الأنفة في دمهم، والمستقبل مفتوح أمامهم، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ الشرف والمال والمستقبل وال...).

كان صديقي يتكلم في حماس، وبحرارة. وأحياناً يشدني بيده، يوقفني في وسط الشارع، ويغرس عينيه الزائغتين في عيني الهاربتين، وأنفاسه السكرى في وجهي، ويصب لي/علي خطابه الساخن.

شددت أذني بإحكام، وبدأت انظر إلى كلماته، كلمات جميلة، تلبس المايوه وتستحم مرحة في أنفاس صاحبها الاستوائية، وأنا أنظر/أتفرج من وراء زجاج. ولكنه يمدّ يده أحياناً فيوقفني: يهشم الزجاج، ويصب لي/عليّ عجائزه الثرثارات:

(... أنا أعرفك وأعرفهم، دع الأمر لي.. لا تفعل شيئاً، قل فقط نعم، ولن تندم...) كنا ذاهبين إلى العرس، وصاحبي سكران، يبدو له الناس أطيب الناس، والناس أخبث الناس، وأبدو له مشروعاً حافلاً بالإمكانات، ويبدو لي...

كنت أخاف أن يعربد في العرس، فحاولت أن أقول: نعم، وأخاف أن (يشريني) فحاولت أن أقول: لا. وأخيراً وعدته بدراسة الموضوع هذه الليلة على الطبيعة، وبالرد غداً، وكررت أمامه للمرة الألف ثقتي وصداقتي...

ودخلنا دار العرس، فوجدت أن خوفي لا أساس له، ماذا يهم أن تقول: نعم، في عرس؟ أو حتى أن تقول: لا؟

قدمني صاحبي في احتفال، وأجلسني في مكان الشرف، وذاب في حمى الأضواء والأصوات والوجوه، فبدا لي وسط العربدة العامة رصيناً، وجد مناخه، فبدأ يسيطر: يصافح ويقبل ويقهقه، يؤكد بالقطع، وينفي البتة، ويشير إليّ أحياناً وهو يستشهد بي.

كان العرس في القمة: مجموعة من الشباب تغني، وأصوات الشيخات تخترق الجو من بعيد، صوت التلفزيون يقرأ النشرة الأخيرة، وأصوات الناس تخاطب الناس دون أن تسمع الناس. وتحت قدمي زربيّة بيضاء ناصعة، وأمامي طاولة عليها مختلف أنواع الزجاجات والكؤوس. وإلى جانبي، جاء أخيراً صاحبي، فجلس، تحيط به ضوضاء معارفه وضحكاتهم، وبدأ الحديث عني.. (سراق زيت أحمر كبير، كان يتحرك على الزربيّة البيضاء، بجانب الطاولة متخبطاً بين أشعة الضوء وموجات الصوت. يسير قليلاً في صمت، ثم يقف، ويحرك شعيراته متقاطعة، ويتابع السير.. لا بد أنه كان يسمع، يتسمع)؟ وأنا أيضاً كنت أسمع، مرغماً. لا أحب أن أسمع الكذب الذي يعرف صاحبه أنني أعرف أنه كذب، ويزعم مع ذلك كذباً أني لا أحب أن أسمع الحديث عن نفسي، لأنه يعتقد كذباً: أنني أحب ذلك حباً جماً. عيناي تهربان إلى سراق الزيت دون جدوى، فأنت لا تستطيع أن ترى بعينيك شيئاً إذا كانت أذناك مشغولتين. ونظر صاحبي إليّ (لا بد أنه نظر إلي) واطمأن إلى عيني الهاربتين، فصدق نفسه، ووضع لسانه في قفّاز حريري أبيض، وتابع التشريح (غالا غالا غالا غا...).

أما أنا فتسرنَمْتُ: دوّخني الضوء والحرارة واللغط، فسرت دون شعور، دون حركة، دون صوت: وجدتني في حافلة

مزدحمة بالرجال والنساء: الحر والعرق حتى الاختناق ولا صوت. لم تكن الحافلة وهي تجري تصدر صوتاً، والرجال لم... والنساء لم... والسائق لم... والجابي لم... وأنا أيضاً لم... فقد كنت أرى، واقفاً بانحراف، في سنتيمتري الذي اقتطعته بالكدّ، وتحت وجهي مباشرة، وجه طفل صغير في الرابعة من عمره: وجه غض وحلو وجميل وصغير، لطفل يقف في حجر أبيه، الجالس محشوراً مع آخرين في المقعد المستطيل. وحولي وحول الطفل وحول أبيه مجموعة من الفتيات، يداعبن الطفل بأناملهن الحمراء، كالمناقير، يربتن على وجنتيه، (يخبلن) شعره، يبتسمن له، يقبلنه. وأبوه المحمر الخدين (من الخجل أو من الحرج؟ أو من السرور؟؟) يحرك شفتيه دون صوت، ويحاول إدماج الطفل في الجو. ولكن الطفل كان خارج الجو: وجهه الصغير الحلو حالم، وعيناه مشدودتان إلى خارج الجانب الأيسر للحافلة، حيث كان يرى (ليس ما وراء الزجاج ولكن) ما ينعكس عليه من الجانب الأيمن: الجدران والاعلانات والعناوين: (بنك... شركة... مؤسسة...) مقلوبة الكتابة معكوسة الأشكال. وجهي فوق وجهه، ووجهه فوق الجانب الأيمن للشارع المتحرك، المنعكس في الزجاج الأيسر للحافلة... دقيقة صغيرة ساهمة... دقيقتان... ثلاث دقا... وكأنما أحس بنظراتي المتفحصة، فرفع عينيه: ابتسم لي الصقر الصغير الجميل، وقالت لي عيناه: «عد إلى عملك الآن فقد عرفت، ولا عذر لك». حين التفتّ إلى الطريق، وجدت الحافلة على الحافة، فاستيقظت هلعاً. كان سراق الزيت قد اختفى، وكانت (الغالا غالا غالا غا) تتخثر في الجو نفاذة ثقيلة كرائحة (الجاوي). قلت لصديقي إنني مريض، سأعود إلى البيت.

خطفت نفسي، وهربت إلى الشارع. اشتريت صحيفة الغد، كانت العناوين تقول (غالا غالا غالا لا)، في الطريق إلى البيت، وسط الشارع المضاء، وأنا وحدي، لم يكن الصديق قد سكت بعد. والعرس لم... والتلفزيون لم... والصحف لم.. والعالم لم... وحتى بعد أن دخلت البيت، وجدت الضوء الكهربائي - الذي نسيت إطفاءه قبل خروجي يقول (غالا غالا غالا لا) فأطفأته.

وحين سمعت العالم يسكت، استيقظت، فوجدتني على الحافة. وأنا لن...

صدر حديثاً عن دار الآداب

جورج طرابيشي

الرّوائي وبطله:

مقاربة للاشعور في الرّواية العربيّة

... إنَّ أكثر الأعمال الفنية أصالة وأقدرها على التوصيل وأبقاها في الزّمن هي تلك التي يقيّض لها أن تبلغ العتبة المحرّمة والمقدّسة لمملكة اللّاشعور. ويخيّل إليّ أنّ ثلاثية «حكاية بحّار» لحنّا مينة و«بدر زمانه» لمبارك ربيع من الرّوايات العربية القليلة التي أمكن لها الاقتراب من تلك العتبة. فقد استطاعت هاتان الروايتان، من خلال ما سنسمّيه بجدلية الآباء العمالقة والأبناء الأقزام، أن تتحرّرا إلى حد غير قليل من وطأة الإكراهات الايديولوجيّة العاملة تحت إمرة «الوعي» والمرتبطة بطبيعة المرحلة التاريخية العربية، وأن تفتحا على خزان اللاشعور كوى وسيعة بما فيه الكفاية ليتدفّق منها بزخم، ولكن ضيّقة أيضاً إلى الحدّ اللازم لتقنين هذا التدفّق وفق آمر الجمالية.

المؤلف